تراث الإنسانية

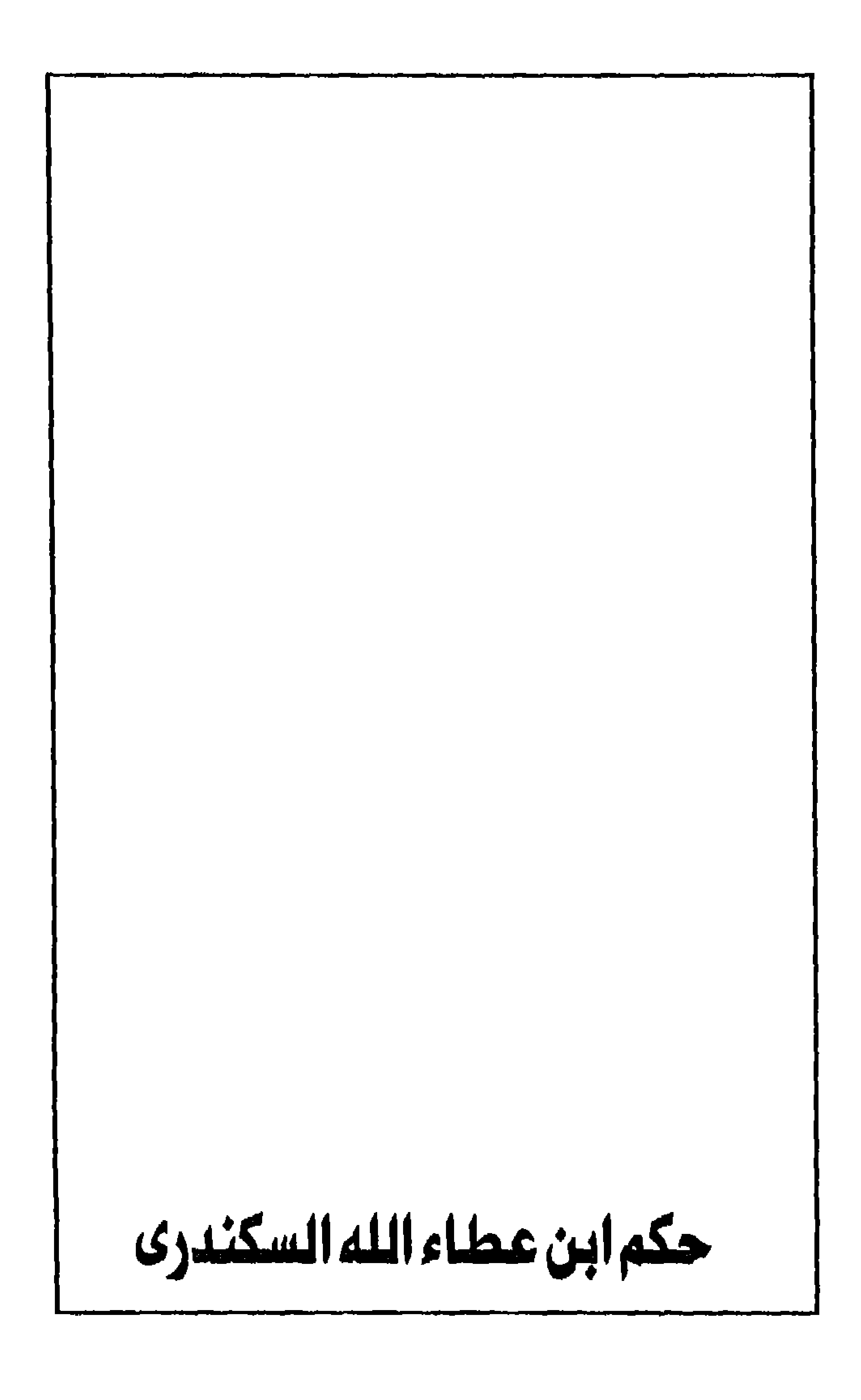
حكم بن عطاء الله



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤


حكم ابن عطاء الله السكندرى

حكم

ابن عطاء الله السكندرى

د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
أحمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

حكم بن عطاء الله السكندرى

بقلم الدكتور ابو الوفا الغنيمى التفتازانى

١ ـ ابن عطاء اللّه السكندرى هو أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية التى أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلى (المتوفى سنة ٦٤٦هـ)، واسمه «أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء اللّه». وهو من أهل الإسكندرية، ولذلك يعرف بالسكندرى، وينسب إلى قبيلة جذام، وقد وفد أجداده الجذاميون إلى مصر، واستوطنوا مدينة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامى.

ولد ابن عطاء اللّه حوالى سنة ٦٥٨ هـ بمدينة الإسكندرية، ويبدو أن أفراد اسرته التى نشأ فيها كانوا مشتغلين بالعلوم الدينية وتدريسها، لأن جده لوالده الشيخ أبا محمد عبد الكريم بن عطاء اللّه كان فقيهاً

معروفاً فى عصره، ولأن ابن عطاء الله نشأ كجده فقيهاً مشتغلاً بالعلوم الشرعية، وكان يطمح إلى بلوغ منزلة جده.

ويمكن أن نميز فى حياته بين ثلاثة أطوار: طوران منها بمدينة الإسكندرية، وطور ثالث وأخير بمدينة القاهرة. فالطور الأول بمدينة الإسكندرية هو الواقع قبل عام ٦٧٤هـ، وفيه نشأ ابن عطاء الله طالباً لعلوم عصره الدينية واللغوية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وبيان وغير ذلك، على خيرة أساتذتها فى ذلك الوقت. أما الطور الثانى فهو يبدأ من سنة ٦٧٤هـ، وهى السنة التى صحب فيها شيخه أبا العباس المرسى، وينتهى بارتحاله من الإسكندرية إلى القاهرة، وفيه تصوف على طريقة الشاذلى، ولم ينقطع فى نفس الوقت عن طلب العلوم الدينية، ثم اشتغل بتدريسها حيناً. وأما الطور الثالث فيبدأ من ارتحاله من الإسكندرية ليقيم بالقاهرة ويدرس بالأزهر، وينتهى بوفاته بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ، وهو طور اكتماله ونضوجه كصوفى وفقيه.

ومن الغريب أن ابن عطاء الله كان فى الطور الأول من أطوار حياته ينكر على الصوفية إنكاراً شديداً،

تعصباً منه لعلوم الفقهاء. أما فى الطور الثانى فقد زال إنكاره للتصوف وتعصبه لأهل العلم الظاهر حين لقى أستاذه المرسى، وأعجب به إعجاباً كبيراً، فأخذ عنه طريق الصوفية، وقد صور ابن عطاء الله حياته الروحية فى هذه الفترة وما تعاقب على نفسه فيها من أطوار، وذلك فى كتابه «لطائف المنن». وقد ظل ابن عطاء الله يتدرج من مدارج الشريعة والحقيقة حتى وصل إلى منزلة عالية فيهما، وقد تنبأ له شيخه المرسى بهذه المنزلة إذ قال له فى بدء سلوكه: «الزم، فو الله لئن لزمت لتكونن مفتياً فى المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة، أهل العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن».

وبعد وفاة الشيخ المرسى فى سنة ٦٨٦هـ، أصبح ابن عطاء الله وارث علمه والقائم على طريقته من بعده.

ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة القاهرة ـ كما ذكرنا من قبل ـ ليشتغل فى أكبر الجامعات الإسلامية آنئذ وهى الجامع الأزهر، وقد عرفنا ذلك مما يقوله ابن حجر، وهذا نصه: «وكان (ابن عطاء الله) يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسى بكلام يروح النفس، ويمزج كلام

القوم (الصوفية) بآثار السلف وفنون العلم، فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير» (١).

وقد أخذ عن ابن عطاء اللّه تلاميذ كثيرون كانوا فيما بعد دعاة للطريقة الشاذلية مثل الشيخ داود بن باخلا وابن المبلق السكندرى، كما تخرج على يديه فقهاء مشهورون مثل تقى الدين السبكى شيخ الشافعية، ووالد تاج الدين صاحب «طبقات الشافعية الكبرى».

وبعد حياة خصصت للدعوة إلى طريق اللّهّ وتربية السالكين، توفى ابن عطاء الله بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩م. وذلك بالمدرسة المنصورية، ولا يزال قبره موجوداً إلى الآن بجبانة سيدى على أبى الوفاء تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث، ويبدو أن موضع هذا القبر كان زواية يتعبد فيها ابن عطاء اللّه.

٢ ـ لم يترك الشاذلى مصنفات فى التصوف ولا تلميذه أبو العباس المرسى، وكل ما خلفاه جملة أقوال فى التصوف وبعض الأدعية والأحزاب، وكان ابن عطاء اللّه هو أول من جمع أقوالهما ووصاياهما وأدعيتهما

(١) الدرر الكامنة، جـ ١ ، ص ٢٧٤.

وترجم لهما، فحفظ بذلك تراث الطريقة الشاذلية الروحى ولولاه لضاع هذا التراث. ثم كان إلى جانب هذا أول من صنف مصنفات كاملة فى بيان آداب الطريقة النظرية والعملية، ومن هنا جاءت أهميته البالغة فى الطريقة وفى التعريف بها وبقواعدها لكل من جاء بعده.

وقد صنف ابن عطاء اللّه غير «الحكم» مصنفات كثيرة، أهمها «التنوير فى إسقاط التدبير». ألفه ليشرح فيه مذهبه في إسقاط الإنسان لتدبيره مع اللّه تعالى؛ و «لطائف المنن» الذى ألفه فى مناقب شيخه المرسى وشيخه الشاذلى، كما صور لنا فيه حياته الروحية سالكاًتحت إرشاد شيخه المرسى، وضمنه كذلك كثيراً من آرائه هو فى التصوف؛ و «القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد»، وهو رسالة تضمنت مذهبه فى الإلهيات و «تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس»، وهو كتاب فى الوعظ والإرشاد؛ و «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح»، الذى ضمنه قواعد الرياضات الصوفية العملية، كالذكر والعزلة والخلوة.

٣ ـ والحكم العطائية فى رأينا هى أهم ما كتب ابن عطاء اللّه فى التصوف، ويمكن اعتبار مصنفاته

التى أشرنا إليها، وغيرها من مصنفاته الأخرى، بمثابة شروح لما انطوت عليه الحكم من الآراء.

ويبدو أنها أول ما صنف من مصنفات، فقد أشار إليها واقتبس فقرات منها فى مصنفاته الأخرى كالتنوير ولطائف المنن وتاج العروس وعنوان التوفيق. وقد ذكر حاجي خليفة أنه لما صنفها عرضها علي شيخه المرسى، فقال له: «يا بنى لقد أتيت فى هذه الكراسة بمقاصد الإحياء (يقصد إحياء علوم الدين للغزالى) وزيادة» (١). فإذا صح ما يذكره حاجى خليفة تكون الحكم قد ألفت قبل عام ٦٨٦هـ، وهو العام الذى توفى فيه المرسى. وقد طبعت الحكم طبعات مختلفة يذكر منها بروكلمان: بولاق ١٢٨٥هـ، القاهرة ١٣٠٣هـ (بهامشها شرح الشيخ الشرقاوى)، ونضيف إليها القاهرة ١٣٣١هـ ـ ١٩١١م بآخر شرح ابن عجيبة، والقاهرة ١٣٥٠هـ بمطبعة التضامن الأخوى، القاهرة ١٩٦٠ بمطبعة الرسالة (نشرها السيد محمد عيد).

(أ) خصائصها من الناحية الأدبية:

تعد الحكم العطائية من عيون النثر الصوفي

(١) كشف الظنون، المجلد الأول، ٦٧٥.

العربي وهى أثر فنى لم يعن أحد من قبل بدرسه دراسة أدبية تحليلية تظهر أهميته فى وضوح. وهى عبارة عن فقرات قصيرة ذوات ألفاظ قليلة تتضمن المعانى الكثيرة.

وأغلب الحكم العطائية فى صورة خطاب موجه إلى المريد السالك لطريق الصوفية تنبيهاً إلى قواعد السلوك التى ينبغى مراعاتها. وليس بين فقراتها ارتباط منطقى، كما لم يراع صاحبها ترتيبها بحسب موضوعاتها، وإنما هى عبارات معبرة عن خطرات نفسه التى عرضت له فى أذواقه، فدونها بغير تعمل تأليف، أو تكلف تصنيف.

وقد راعى صاحبها فى أسلوبها اختيار الكلمات ونظمها بحيث تؤثر في نفس سامعها، ويكاد ابن عطاء اللّه ينقل إلى سامعها ـ حتى ولو لم يكن من الصوفية ـ أذواقه ومواجيده التى تضمنتها فيطرب لسماعها، فما بالك بالصوفى المتهيئ لمثل هذه الأذواق وتلك المواجيد؟

ويعنى ابن عطاء اللّه فى حكمه بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات، وبالمحسنات اللفظية كالسجع والجناس، ويستخدم أحياناً المقابلة، ويكثر من صيغة الاستفهام المقترنة بالتعجب، ويعبر في كثير منها عن

المعنى الواحد بعبارات متعددة، وفى أحيان قليلة جداً يلجأ إلى التسلسل المنطقى فى العبارات:

فمن تشبيهاته وأخيلته واستعاراته الجميلة قوله لمريده فى معنى التواضع: «ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه» (١) ؛ وقوله له: « لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك، فالنهار ليس منك، ولكنه وارد عليك» (٢) ؛ وقوله أيضاً له : «ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً» (٣) وقوله فى عبارة موجزة: « ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع» (٤) ؛ وقوله أيضاً ناصحاً مريده: «لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، وإن إلى ربك المنتهى» (٥).

(١) شرح الرندى على الحكم، جـ ١، ص١٤

(٢) نفس المرجع، جـ ٢، ص ٨٩..

(٣) نفس المرجع، جـ ١، ص ١٣٢.

(٤) نفس المرجع، جـ ١، ص٥٧.

(٥) نفس المرجع، جـ١، ص ٤٤.

ويعنى صوفينا السكندرى فى حكمه بالسجع، ولكن سجعه لا يفسد معاني عباراته، بل على العكس من ذلك، يزيدها قوة فى المعنى، وعذوبة في التعبير. استمع اليه إذ يقول لمريده : « عنايته فيك لا لشئ منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته؟ لم يكن فى أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال» (١) ؛ وإذ يقول له أيضاً: « كيف يكون طلبك اللاحق سبباً فى عطائه السابق؟ جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل» (٢) ؛ أو قوله معبرا عن حقائق المعرفة ومناهجها «الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار» (٣).

ويلجأ ابن عطاء اللّه احيانا إلى الجناس التام نحو قوله: «حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلا وللّه

(١) نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٢.
(٢) شرح الرندى علي الحكم، جـ ٢، ص١٢.
(٣) نفس المرجع، جـ ٢، ص٩٩.

عليك فيه حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق اللّه فيه ؟ » (١) فالأوقات الأولى هى الأزمنة المعروفة، والأوقات الثانية بالمعنى الصوفية، وهى ما يرد على العبد من تصريف اللّهً تعالى له فى المعاملات الباطنة.

ويلجأ أيضاً إلى المقابلة فيكسب روعة فى المعنى، استمع إليه إذ يقول: «معصية أورثت ذلا وافتقاراً خير من طاعة أورثت غراً واستكباراً» (٢) ؛ أو يقول : «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلكّ يمدك بعزته، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته» (٣) ؛ أو يقول : « ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك» (٤) .

وهو يكثر من صيغة الاستفهام للتعجب فى حكمه كأن يقول: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ ! .. أم كيف يرحل إلى اللّه وهو مكبل بشهواته؟!

(١) نفس المرجع، جـ ٢، ص٤٥.

(٢) نفس المرجع، جـ ١، ص٨٩.

(٣) نفس المرجع، جـ٢، ص ١٦.

(٤) نفس المرجع، جـ ١، ص ٣١.

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟! أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟ ! » (١)

وكان يقول لمريده فى آداب الصحبة: «ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.. فأى علم لعالم يرضى عن نفسه، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!»(٢) ؛ وكأن يقول ناصحاً له بالالتجاء إلى الله من دون الخلق : « لاترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً ! من لا يستطيع أن يرفع حاجة نفسه فكيف يستطيع أن يرفعها عن غيره ؟!»(٣).

والملاحظ أيضا أنه يعبر فى الحكم أحياناً عن المعنى الواحد بتأليفات لفظية مختلفة، فيقول مثلا: «ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه» (٤) ، مشيرا إلى أن ليس كل صوفى من أصحاب الكرامات قد وصل إلى

---

(١) نفس المرجع، جـ ١، ص٢٠.
(٢) نفس المرجع، جـ ١، ص ٤٠.
(٣) نفس المرجع، جـ ١، ص ٤١.
(٤) نفس المرجع، جـ ١، ص ١٠٣.

درجة الخلاص عن حظوظ النفس. ثم يعبر عن نفس المعنى بتأليف لفظى آخر فيقول: «ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة» (١)؛ ويعبر عنه أيضاً لمريده بقوله: «تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب» (٢) .

ولا يلجأ إلى استخدام التسلسل المنطقى فى حكمه إلا فى النادر، كأن يقول لمريده: «الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر اليه، إذ لو حجبه شئ لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان بوجوده حاصر، وكل حاصر لشئ فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده» (٣).

هذه هى بعض خصائص الحكم من الناحية الأدبية والبلاغية، وفيما يلى سنبين موضوعاتها وخصائصها وقيمتها من الناحية التصوفية:

(ب) موضوعاتها وخصائصها وقيمتها من الناحية التصوفية: أودع ابن عطاء الله حكمه خلاصة

---

(١) نفس المرجع، جـ ٢، ص ١٦.

(٢) نفس المرجع، جـ ١، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) شرح الرندى على الحكم، جـ ١، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

آرائه فى التصـوف ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه الحكم تستوعب مذهبه الصوفى بأسره، وأن جميع مصنفاته الأخرى ليست إلا شرحا وتفصيلا لما أحتوته.

ومن الحكم العطائية ما يتناول الأحكام الشرعية من ناحية آثارها فى قلوب المتعبدين السالكين.

ومنها ما يعرض للمجاهدة النفسية وما يتعلق بها، ومنها يترتب عليها من المقامات والأحوال التى هى ثمرتها.

ومنها ما يدور حول المعرفة وماهيتها وأدواتها ومناهجها وآداب المتحققين بها.

ومنها ما يتضمن آراء ميتافيزيقية فى تفسير الوجود، وصلته بالله، وصلة الإنسان بالله.

ثم منها ما يشير إلى آداب السلوك العامة التى ينبغى أن يراعيها السالك فى مجاهداته ومقاماته وأحواله ومعرفته وبعبارة أخرى فى طريقه من أوله إلى أخره.

وللحكم العطائية من حيث هى مصنف صوفى خاصية واضحة هى الرمزية، وابن عطاء الله فى

استخدامه لأسلوب الرمز فيها متابع للصوفية فيما عمدوا اليه فى كثير من الأحيان من إخفاء أذواقهم باستخدام الألفاظ الاصطلاحية الخاصة بهم (١)، فيكون لعباراتهم معنيان: أحدهما يستفاد من ظاهر الألفاظ ولآخر يستفاد وبالتحليل والتعمق. وهذا المعنى الأخير يكاد يستغلق تماماً على من ليس بصوفى، وهو المعنى عندهم بالرمز، على نحو ما يشير إليه الطوسى فى «اللمع» بقوله : «الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله» (٢).

ويعنى الرمز عند الصوفية أيضاً دمج كثير المعنى فى قليل اللفظ، غيرة عليه، واتقاء لحاسد أو جاحد لمبانيه أو معانية (٣).

فاذا كنا مع صوفينا السكندرى وجدنا حكمه من قبيل الرمزيات، لأنها من ناحية تنطوى على معان باطنة

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٣١.

(٢) السراج الطوسى: اللمع فى التصوف، نشره نيكولسون، ليدن ١٩١٤م، ص٣٢٨.

(٣) الشيخ أحمد رزق: قواعد التصوف، القاعدة رقم ١٩٦.

مخزونة تحت كلام ظاهر، ولا يكاد يظفر بهذه المعـــانى على التـحـقيق إلا من كان صوفيا صـاحب ذوق، ومن ناحية أخرى تعبر ألفاظها القليلة عن المعانى الكثيرة، ويحدث أحياناً أن تستوعب الحكمة الواحدة منها، على قصرها، وقليل ألفاظها، مذهباً كاملاً فى التصوف.

فمن قبيل عباراتها القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى، والتى تحتاج فى فهمها إلى تعمق، قوله لمريده: «أشهدك من قبل أن يستشهدك. فنطقت بالهيته الظواهر وتحققت بأحديته القلوب والسرائر (١)؛ وقوله له: « لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف» (٢)؛ وقوله : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه» (٣)؛ وقوله : « الأكوان ثابتة باثباته، ممحوة بأحدية ذاته» (٤).

فالعبارة الأولى مشيرة إلى سبق شهود النفس الإنسانية لأحدية الله في عالم آخر هو عالم الذر قبل وجودها فى البدن، وإلى أنها مطالبة فى عالمها هذا

---

(١) شرح الرندى على الحكم، جـ ٢، ص ٩٣.

(٢) نفس المرجع، جـ٢، ص ٧٦.

(٣) نفس المرجع، جـ١ ، ص ١٠٣.

(٤) نفس المرجع، جـ ١، ص ١٢٨.

بالشهادة للّه بالوحدانية، وأن المعرفة باللّه، وإن كانت مما تتحقق به نفس الإنسان فى عالم الظواهر، إلا أن أصلها فطرى فى هذه النفس.

أما العبارة الثانية فتشير إلى الأساس الذى تقوم عليه رياضة النفس عنده، وهو التخلق بأخلاق اللّه تعالى بشهود أوصافه على قدر الطاقة الإنسانية، لأنه لا يخرج المريد عن وصفه الذميم إلا شهوده لوصف اللّه.

وتشير العبارة الثالثة إلى مذهبه فى الزهد فى الكرامات من حيث هى خوارق للعادات، إذ ليس كل من خصص بها فى رأيه ممن كمل تخليصه من حظوظ نفسه.

وأما العبارة الرابعة فمشيرة إلى مذهب فى تفسير الوجود مؤداه أن الأكوان مخلوقة للّه وممكنة، ولذا لا تتصف بالوجود الحقيقى بالقياس إلى أحدية اللّه الذى هو الوجود الحقيقى الواجب.

ويظهر أن ابن عطاء اللّه قد راعى أن تكون حكمه هذه للخاصة دون غيرهم، ويبدو واضحاً أنه لا يريد أن يعبر عما انطوت عليه من حقائق التصوف تعبيراً صريحاً، فهو معتقد ـ كغيره من الصوفية ـ أن التعبير

الصريح عن مثل هذه الحقائق ليس من صفة الصوفى المحقق لماضى ذلك من ابتذال لها، وإلى ذلك الإشارة بقوله فى الحكم لمريده: « من رأيته مجيباً عن كل ما سئل، ومعبراً عن كل ما شهد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله» (١).

ويبين لنا ابن عباد الرندى أحد شراح الحكم زنه حين أقدم على شرح الحكم العطائية كان متهيباً كل التهيب، وما ذلك إلا لأن عباراته من قبيل الإشارات الرمزية، فيقول: «ولا قدوة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب (يقصد الحكم)، وما تضمنه من لباب اللباب، لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة، وجواهر حكم مكنونة، لا يكشفها إلا هم، ولا تبين حقائقها إلا بالتلقى عنهم، ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها، والمناحى إلى نعتمدها، غير مدعين لشرح كلام المؤلف، ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذاهبهم.. فانا إن ادعينا ذلك كان منا إساءة أدب» (٢).

---

(١) نفس المرجع، جـ ١، ص ٧٤.

(٢) شرح الرندى على الحكم، جـ ١، ص ٢ ـ ٣.

وللحكم العطائية من حيث هي مصنف في التصوف يتناول العقائد، خاصية أخرى، وهى أنها متمشية مع الكتاب والسنة، وليس فيها عبارات موهمة، أو متشفعة بحسب ظاهرها، وإلى ذلك يشير ابن عجيبة أحد شراحها بقوله: « ... والمسلك الذى سلك فيه (أى في مصنف الحكم) مسلك توحيدى لا يسع أحداً إنكاره ولا الطعن فيه، ولا يدع للمعتنى صفة حميدة إلا كساه إياها، ولا صفة ذميمة إلا أزالها عنه باذن اللّه» (١).

ويرى ابن مغيزل الشاذلى أن الحكم لا تنطوى على معاني الاتحاد أو ما إليه من المذاهب الفاسدة فيقول ما نصه: « ولو كان فى الحكم ذرة اتحاد أو إشعار فساد لم يستحل السبكى (تقى الدين) قراءته ... » (٢).

وللحكم العطائية قيمة تصوفية كبرى ، فهى تلخص مذهب ابن عطاء اللّه الصوفى من ناحية، وهى دستور للسالكين لطريقة الشاذلى علي اختلاف فروعها من ناحية أخرى، وقد اشتهر ابن عطاء اللّه بين أبناء

---

(١) ايقاظ الهمم، جـ ١، ص ٩.

(٢) أبو الصلاح الصعيدى الشاذلى: تعطير الأنفاس، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ٣٨٨ تاريخ، ورقة ١١١.

(٣) سلسلة الشاذلية بمنهل الأنوار المحمدية ، ص ٢٢٨.

طريقته بها فلقبوه بـ « صاحب الحكم» (٣).

وقد شاعت الحكم بين من جاءوا بعد ابن عطاء اللّه من الصوفية فى مصر وغيرها من الاقطار العربية الإسلامية، وخاصة فى بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر ومراكش) وفى الأندلس، حيث عكف الصوفية على دراستها، وقام كثير منهم بشرحها.

وقد ذكر ابن عجيبة فى بيان قيمتها التصوفية عن الشيخ العربى (أحد مشايخ الشاذلية المتأخرين بالمغرب) أنه سمع فقيهاً يسمى البنانى يقول: «كادت حكم ابن عطاء اللّه أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم» (١).

ولم تجد الحكم العطائية طريقها بعد وفاة صاحبها إلى الصوفية فحسب، وإنما وجدت طريقها أيضا إلي الفقهاء من علماء الأزهر بمصر، فقد قام بشرحها وتدريسها بالأزهر طائفة من العلماء المصريين، منهم الشيخ حسن المدابغى الأزهرى المتوفى سنة ١١٧٠هـ، والشيخ على العدوى المتوفى سنة ١١٨٩هـ ، والشيخ محمد بن عبادة بن برى العدوى المتوفى سنة

(١) إيقاظ الهمم، ص ٤.

١١٩٣ هـ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الإسلام المتوفى سنة ١٢٢٧هـ، والشيخ عبد المجيد الشرنوبى من علماء الأزهر (كان موجوداً سنة ١٣٢٢ هـ) وغيرهم. وظل الأمر كذلك إلي عهد ليس ببعيد، فقد ذكر المرحوم الدكتور زكى مبارك أن الحكم العطائية كانت مما يدرسه كبار العلماء فى الأزهر الشريف فى عصرنا هذا، ومن هؤلاء المرحوم الشيخ محمد بخيت (مفتى الديار المصرية سابقاً) الذى كان يدرسها للجمهور بعد صلاة العصر من أيام رمضان فى مسجد الحسين، وذكر أنه حضر عليه طائفة من تلك الدروس، وأنه أنس بمعانى الحكم العطائية أشد الأنس (١) .

ولا زالت الحكم العطائية إلى يومنا هذا تدرس فى مجالس الخاصة من الصوفية، وهذا من غير شك دليل على أنها أثر حى باق على الرغم من مر القرون عليه.

والشروح التى كتبت على الحكم أكثر من أن

(١) زكش مبارك: التصوف الإسلامى وفى الأدب والأخلاق جـ ١، ص ١٣٦ .

(٢) عرضنا لهذه الشروح بشئ من التفصيل فى كتابنا «ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه» القاهرة ١٩٥٨، من ص ٧٤ ـ ٧٨، فقد ذكرنا هناك أربعة وعشرين شرحا لا يزال عدد كبير منها مخطوطا فى مكتبات الجمهورية العربية المتحدة والمانيا وتركيا والولايات المتحدة وغيرها، كما ذكرنا منظومات الحكم وترتيبها (ص٧٨)،=

نحصيها فى هذا المقام [٢] ، فهى قد شرحت فى أزمنة مختلفة وفى أقطار كثيرة، وبلغات أجنبية أحيانا كالتركية والمالوية إذ قد تعشقها ـ كما يقول حاجى خليفة ـ أرباب الذوق لما رق لهم من معانيها وراق [١] ، ولا نكون مجانبين الحق إذا قلنا أنه لا يوجد أى مصنف صوفى حظى فى شروحه بمثل عدد شروح الحكم.

ويرى المستشرق الإنجليزى المعاصر آرثر جون أربرى [٢] أن الحكم العطائية قد ظفرت بقبول غير عادى كما يشهد بذلك العدد الكبير من الشروح التى كتبت عليها، ويصف الحكم العطائية بأنها كتاب صغير جذاب وبليغ. وقد ترجم فقرات قليلة منها إلى اللغة الإنجليزية.

وقد شعر بأهمية الحكم أيضاً المستشرق

=وقد ظهر بعد ذلك الجزء الأول من شرح للحكم عنوانه «الفيوضات الربانية فى شرح الحكم العطائية للسيد محمد عيد الشافعى، القاهرة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م، ولعله آخر شرح كتب عليها.

(١) كشف الظنون، المجلد الأول، ٦٧٥.

(٢) Arberry (A.J): Sufism, London 1950, pp. 87-89.

الأسباني ميجيل أسين بلاسيوس فترجم فقرات كثيرة منها، مع شروح الرندى عليها، في بحث له عن هذا الأخير، واحتمال تأثر الصوفي الأسباني المسيحي يوحنا الصليبي (juan de La Gruz) بآرائه الشاذلية.

وهكذا ظفرت الحكم العطائية باهتمام غير عادى منذ القرن الثامن الهجرى إلى العصر الحاضر، كما وجدت طريقها من مصر إلى أقطار إسلامية عدة، كالأندلس والمغرب العربى والجزيرة العربية وتركيا والهند والملايو، وبهذا أصبحت الحكم تراثاً صوفياً حياً.

٤- مختارات من الحكم:

(أ) فى إسقاط التدبير مع الله:

١- «ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يرضيه»

٢ - «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك».

٣ - «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما

(١) Miguuel Asin Palacios: Un precursor Hispanomusulan de San Juan de La Cruz, Obras Escogidas, Madrid 1946, pp. 280-326.

طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك»

٤ ـ « علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال: «يختص برجمته من يشاء» وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأذل فقال: « أن رحمة الله قريب من المحسنين»

(ب) في مجاهدة النفس:

١ ـ «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفه عدم الرضا عنها».

٢ ـ « الناس يمدوحونك لما يظنون فيك، فكن انت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها»

٣ ـ «إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فانه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً».

٤ ـ «لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك،، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك».

٥ ـ «لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطي وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه».

(جـ) فى آداب السلوك:

١ ـ «إرداتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاطا عن الهمة العلية».

٢ ـ ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه».

٣ ـ «طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه».

٤ ـ «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل».

٥ ـ «ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك! ولا تبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر!».

(د) فى المقامات والأحوال:

١ ـ «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق فى مقامات الإنزال».

٢ ـ «قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة، لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد».

٣ ـ «لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

٤ ـ «إنما جعلها محلا للأغيار، ومعدناً لوجود الأكدار، تزهيداً لك فيها».

٥ ـ «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها، عرفها بوجود فقدانها».

٦ ـ «إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء، فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه».

٧ ـ «ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضاً أو يطلب منه غرضاً، ان المحب من يبذل لك، ليس المحب من تبذل له».

٨ـ «متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به».

٩ ـ « بسطك كى لا يبقيك مع القبض، وقبض كى لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كى تكون لشىء من دونه».

(هـ) فى المعرفة:

١ ـ «وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شىء، أو يتصل هو بشىء».

٢ ـ «دل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبوجود أوصافه على وجود ذاته. إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود آثاره. والسالكون علي عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد، فربما التقيا فى الطريق هذا فى ترقيه، وهذا في تدليه».

(و) فى شهود الأحدية:

١ ـ «أظهر كل شىء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شىء لأنه الظاهر».

٢ ـ «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار».

٣ ـ «الأكوان ثابتة باثباته، وممحوة بأحدية ذاته».

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥١٥٣

I.S.B.N 977-01-3920-3

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



مطابع
الهيئة المصرية العامة